مجلة التربية للعلوم الانسانية

مجلة علمية فصلية محكّمة، تصدر عن كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة الموصل

تأويل طبيعة الشر وفق منظور سبينوزا الأخلاقي

صهيب محمد صالح عثمان [1]

جامعة تلعفر / كلية التربية الاساسية / قسم اللغة العربية / الموصل – العراق [1]

معلومات الارشفة

تاريخ الاستلام : 2025/10/6

تاريخ المراجعة : 2025/11/5

تاريخ القبول : 2025/11/30

تاريخ النشر : 2026/3/1

الكلمات المفتاحية :

فلسفة ؛ الأخلاق ؛ المعرفة ؛ الشر ؛ الطبيعة

معلومات الاتصال

صهيب محمد صالح

Sohaib.m.othman@uotelafer.edu.iq

الملخص

يعد سبينوزا من رواد الفلسفة التنويرية في القرن السابع عشر، ويمثل المفهوم الاخلاقي شأنا كبيرا في فلسفته يهدف البحث إلى تحليل تأويل سبينوزا لطبيعة الشر في إطار نظامه الأخلاقي، مع التركيز على البُعد العقلي والمعرفي لهذا التأويل، وتقييم مدى اتساقه الداخلي، وقدرته على تجاوز الثنائية التقليدية بين الخير والشر، دون التفريط في معنى المسؤولية الأخلاقية. ومن أهم الاستنتاجات التي توصل إليها البحث:

يرى سبينوزا أن الشر ليس فعلًا ضد الله أو خرقاً للنظام الأخلاقي، بل ظاهرة نسبية تنشأ من انفصال الإنسان عن وعيه بوحدته مع الكون، وبذلك يصبح الشر ناتجاً عن الجهل وليس عن وجود قوة مستقلة. ويظهر الشر نتيجة هيمنة الانفعالات السلبية التي تُضعف قدرة الإنسان على الفعل الحر، وبذلك يتحول الشر من مفارقة أخلاقية مطلقة إلى مسألة معرفية يمكن معالجتها بالعقل. ومن أهم التوصيات: ضرورة دراسة الشر ليس فقط كظاهرة معرفية أو فلسفية، بل أيضاً كواقع اجتماعي وتاريخي وسياسي، لتوسيع نطاق فهم الأخلاق والعدالة في مواجهة الظلم والتمييز

DOI: **********,, ©Authors, 2025, College of Education for Humanities University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Journal of Education for Humanities

A peer-reviewed quarterly scientific journal issued by College of Education for Humanities / University of Mosul

Interpretation of the Evil Inclination as Viewed by Spinoza

Suhaib Mohammed Seleh Othman [1]

University of Telafer/College of Basic Education/Department of Arabic Language / Mosul - Iraq [1]

Article information

Received : 6/10/2025
Revised 5/11/2025
Accepted : 30/11/2025
Published 1/3/2026

Keywords:

Philosophy , Ethics , Knowledge , Evil , Nature

Correspondence:
Suhaib Mohammed
Sohaib.m.othman@uotelafer.edu.iq

Abstract

Spinoza is regarded as a pioneer of Enlightenment philosophy in the seventeenth century, and moral concepts occupy a significant place in his thought. This study aims to analyze Spinoza's interpretation of the evil inclination within the framework of his moral system, focusing on its rational and cognitive dimensions. It also seeks to assess the internal consistency of his view and its capacity to transcend the traditional dichotomy of good and evil without undermining the sense of moral responsibility. The research concludes that, for Spinoza, evil is not an act directed against God or a violation of the moral order. Rather, it is a relative phenomenon that arises when an individual loses unity with the universe. Evil is therefore a product of ignorance, not the effect of an independent force. It stems from the dominance of negative interactions that weaken one's capacity for free action. Accordingly, evil is transformed from an absolute moral paradox into a cognitive issue that can be addressed through rational means. The study recommends examining evil not only as a cognitive or philosophical problem but also as a social, historical, and political reality. Such an expanded perspective may deepen our understanding of morality and justice in the face of injustice and discrimination

DOI: **********,, ©Authors, 2025, College of Education for Humanities University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

المقدمة:

تُعدّ مسألة الشر من أقدم وأعمق الإشكاليات الفلسفية والدينية التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور، إذ تطرح أسئلة جوهرية حول طبيعة الكون، ووجود الخير، ومسؤولية الإنسان، وحدود العقل في تفسير المعاناة والظلم. وقد اتخذت هذه الإشكالية أبعاداً ميتافيزيقية، لاهوتية، أخلاقية، ونفسية، حيث حاول الفلاسفة التوفيق بين وجود إله كليّ الخير والقدرة وبين انتشار الشر في العالم.

في هذا السياق، يُعدّ باروخ سبينوزا (1632–1677م) أحد أكثر الفلاسفة جرأة في معالجة مسألة الشر، حيث تناولها في إطار نظام فلسفي شامل يُعيد تأسيس الميتافيزيقا، والمعرفة، والأخلاق على أسس عقلانية صارمة، مستندة إلى المنهج الهندسي والبرهان العقلي. في "أخلاقيات سبينوزا"، لا يُنظر إلى الشر ككائن مستقل أو كقوة معاكسة للخير، بل كظاهرة نسبية تنجم عن نقص في الفهم البشري، وعَدم انسجام الإنسان مع النظام الكوني الكلي.

إنّ تأويل سبينوزا للشر لا يقتصر على تفكيك المفهوم اللاهوتي له، بل يمتد إلى إعادة تعريف الأخلاق نفسها، حيث لا يكون الفعل "شريراً"؛ لأنه يخالف أمراً إلهياً، بل لأنه ينبع من عواطف سلبية (مثل الكراهية، والخوف، والحسد) تُضعف قدرة الإنسان على التفكير بعقلانية والاندماج في النظام الطبيعي. وهكذا، يتحول الشر من كونه مسألة أخلاقية مطلقة إلى قضية معرفية ونفسية تتعلق بدرجة وعي الفرد بالقوانين التي تحكم الوجود.

إشكالية البحث:

تتجلى إشكالية البحث في التوتر القائم بين النظرة العقلانية المطلقة التي يتبناها سبينوزا للوجود، والتي تُخضع كل شيء — بما في ذلك أفعال الإنسان — لضرورة طبيعية كونية واحدة، وبين الحاجة إلى تفسير الظواهر الأخلاقية الصارخة التي نعيشها ونختبرها كـ"أفعال شريرة"، مثل الظلم، والقمع، والعنف المفرط. فبينما يرفض سبينوزا جذريًا وجود الشر ككائن مستقل أو كقوة مخالفة للخير، ويعتبره مجرد تعبير عن نقص في فهم الإنسان لاندماجه في النظام الكلي للطبيعة، فإنه في الوقت ذاته يُلغّب على الثنائية الأخلاقية التقليدية التي تقوم على مفارقة الخير والشر.

وهذا التناقض الظاهري — بين رؤية كونية حتمية لا تعرف "الانحراف"، وبين واقع إنساني مليء بالمعاناة، والذنب، والمسؤولية — يثير إشكاليات عميقة حول مدى قدرة التأويل السبينوزي على حمل العبء الأخلاقي للتجربة الإنسانية. فهل يكفي أن نُرجع كل فعل "شرير" إلى جهل أو عاطفة سلبية، أم أن هذا التفسير يُقلّل من شأن الألم الحقيقي، ويُفقِد الأخلاق وظيفتها التقييمية والتحررية؟

ومن هنا تنبثق الحاجة إلى قراءة نقدية تُحلّل بنية التأويل السبينوزي للشر، وتختبر مدى اتساقه الداخلي، وقدرته على التوفيق بين رؤيته الميتافيزيقية الشاملة ومتطلبات المسؤولية، والعدالة، والفعل الأخلاقي في عالم ملموس تتجلى فيه الشرور ليس كأوهام، بل كواقع هيكلِي ومؤلم.

وتتمثل مشكلة البحث في التساؤل الرئيس الآتي: كيف أسس سبينوزا لمفهوم الشر في إطار نظامه الأخلاقي العقلاني، وإلى أي مدى ينجح هذا التأسيس في تفكيك الثنائية التقليدية بين الخير والشر دون التفريط في مضمون المسؤولية الأخلاقية والإنسانية

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في معالجته لمفهوم جوهري في الفكر الأخلاقي والديني: الشر. فالتأمل في طبيعة الشر ليس مجرد استفسار نظري، بل يمسّ واقع الإنسان المعيش، وعلاقته بالآخرين، وبالكون، وبالذات. ومعالجة سبينوزا لهذا المفهوم تمثل لحظة انقلابية في تاريخ الفلسفة، حيث تُفكك الثنائية اللاهوتية الخير/الشر، وتُستبدل بمنظور عقلاني–أنطولوجي يُعيد تعريف الأخلاق من داخل النظام الطبيعي.

كما أنَّ دراسة هذا التأويل تُسهم في فهم العلاقة بين المعرفة والأخلاق، وبين العقل والعاطفة، وبين الإنسان والطبيعة، مما يفتح الباب أمام تأملات في الفلسفة السياسية، والطب النفساني، ونظرية المعرفة. وإلى جانب قيمتها النظرية، تُسهم هذه الدراسة في إغناء النقاش حول المسؤولية، والحرية، والعدالة في عالم يزداد تعقيدًا، حيث تُطرح مجددًا أسئلة حول أسباب الحروب، والتمييز، والعنف الهيكلي.

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحليل تأويل سبينوزا لطبيعة الشر في إطار نظامه الأخلاقي، مع التركيز على البُعد العقلي والمعرفي لهذا التأويل، وتقييم مدى اتساقه الداخلي، وقدرته على تجاوز الثنائية التقليدية بين الخير والشر، دون التفريط في معنى المسؤولية الأخلاقية.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي–النقدي، الذي يجمع بين التأويل الدقيق للنص الفلسفي ومساءلته من خلال قراءة نقدية ممتدة عبر الزمن. ويُبنى المنهج على ركائز متكاملة تهدف إلى فهم تأويل سبينوزا للشر من الداخل، ثم اختبار قدرته على الصمود أمام التحديات النظرية والوجودية.

يُقدّم البحث قراءة تحليلية متأنية لنصوص سبينوزا الأساسية، ولا سيما الجزء الثالث والرابع والخامس من "الأخلاقيات"، التي تُشكّل اللبّ المفاهيمي لتأويله للشر. ويتمّ في هذا السياق تفكيك البنية المفاهيمية للشر

عند سبينوزا، مع التركيز على مفاهيم محورية مثل: الطبيعة (أو الله)، العقل والانفعال، الحرية والضرورة، والانسجام الكوني، وذلك من خلال تتبع برهانه الهندسي وتحليل تعريفاته ومسلّماته.

ثم ينتقل البحث إلى البعد النقدي، حيث يُقارن التأويل السبينوزي بمنظورات فلسفية لاحقة، بهدف تقييم مدى اتساقه الداخلي وقدرته على حمل العِبْء الأخلاقي للتجربة الإنسانية. ويشمل هذا النقد مواقف فلاسفة من تيارات متنوعة، مثل: كانط، الذي يربط الأخلاق بالحرية التخييرية، في تعارض صريح مع الحتمية السبينوزية؛ كيركغارد، الذي يُبرز البُعد الوجودي للذنب والقلق، مقابل البرهان العقلي المجرد؛ ونيتشه، الذي ينتقد سبينوزا باعتباره فيلسوف "الانسجام" الذي يُنكر الإرادة والصراع؛ وفوكو، الذي يُعيد قراءة المعرفة كشبكة سلطة، ويتساءل إن كان تأويل الشر كـ"جهل" لا يُخفي بُعداً تفكيكياً للسلطة المعرفية.

كما يعتمد البحث على قراءة سياقية تُربط سبينوزا بالظروف التاريخية والفكرية التي نشأت فيها، لا سيما طرده من الجالية اليهودية، ونقد اللاهوت التقليدي، وصعود العلم الحديث، مما يُساعد على فهم جذور رفضه للثنائية الخير/الشر بوصفها أدوات إيديولوجية للسيطرة.

وأخيراً، يُفتح البحث على قراءة معاصرة، من خلال استكشاف آثار تأويل سبينوزا في مجالات مثل: علم النفس (العلاج المعرفي السلوكي، الذي يُقرّ بتأثير العواطف السلبية على السلوك)؛ والأخلاق البيئية (الاندماج في الطبيعة كأساس للأخلاق)؛ والفلسفة السياسية (التعامل مع الظلم الهيكلي كانفصال عن النظام العادل).

وبذلك، يجمع المنهج بين التأويل الدقيق للنص، والنقد الفلسفي المتعدد الأبعاد، والقراءة التاريخية والمعاصرة، في محاولة لتقديم معالجة متوازنة تُقدّر عبقرية سبينوزا الفلسفية، وتكشف في الوقت ذاته عن التحديات التي يفرضها تأويله للشر على الفكر الأخلاقي الحديث.

المبحث الأول: الأسس الفلسفية لتأويل الشر عند سبينوزا:

يُعدّ تأويل سبينوزا للشر نتاجاً لبناء فلسفي متكامل، لا يمكن فهمه بمعزل عن الأسس الميتافيزيقية، المعرفية، والأخلاقية التي يقوم عليها نظامه الفكري. فالشر عند سبينوزا ليس مفهوماً منفصلاً، بل هو نتيجة حتمية لرؤية كونية تُعيد تعريف كل المفاهيم الأساسية: من الله إلى الطبيعة، ومن الإنسان إلى العقل، ومن الحرية إلى السعادة. ولذلك، يتطلب فهم تأويله للشر العودة إلى الجذور التاريخية والفلسفية التي مهّدت لهذا التصور، من خلال تتبع تطور مفهوم الشر عبر العصور، بدءاً من الفلسفة اليونانية، مروراً بالفكر اللاهوتي، ووصولاً إلى الفلسفة الحديثة التي شكّلت السياق الذي نشأ فيه سبينوزا. فهذا التسلسل يُبيّن كيف انتقل مفهوم الشر من كونه كائناً أخلاقياً أو لاهوتياً إلى أن يصبح ظاهرة نسبية وعقلانية في نظام سبينوزا (Nadler, 2018, p. 112)

المطلب الأول: الشر في الفلسفة اليونانية:

تُعدّ الفلسفة اليونانية من أوائل الأطر الفكرية التي تناولت مسألة الشر بمعزل عن التفسيرات الخرافية أو الدينية السائدة، حيث حاول الفلاسفة إدراج الشر ضمن نظام عقلي ومنطقي يفسر الطبيعة والأخلاق معاً.

فعند أفلاطون (Plato) (427–347 ق.م)، لا يُنظر إلى الشر كقوة مستقلة، بل كنقص في الخير (privation of good)، فالشر ليس كائناً له وجود ذاتي، بل هو غياب للنور، كما أن الظلام ليس كائناً، بل غياب للضوء. وبناءً على ذلك، فإن كل كائن يسعى إلى الخير، وإن ارتكب فعلاً نسميه "شريراً"، فذلك ناتج عن الجهل، لا عن اختيار متعمد للشر (Jenkins, 2020, p. 103). وهكذا، فإن الشر عنده مرتبط بالجهل بالنموذج الأعلى للخير، وهو ما يجعل المعرفة شرطًا للخير.

أما أرسطو (Aristotle) (384–322 ق.م)، فقد تناول الشر من زاوية أخلاقية عملية، حيث رأى أن الفعل الشرير هو نتيجة انحراف في الوسط (Golden Mean) ، أيْ : ميل إلى أحد الطرفين المفرطين في السلوك. فالجبن شر؛ لأنه ميل مفرط في الخوف، كما أن التهور شر؛ لأنه نقص في الخوف. وبالتالي، فإن الشر عنده ليس فعلًا ضد إله، بل انحرافاً عن التوازن العقلي في السلوك (Code, 2019, p. 88). ولهذا، فإن الفضيلة هي اكتساب عادة سلوكية معتدلة، بينما الرذيلة هي عادة فاسدة ناتجة عن ضعف في الإرادة (akrasia).

من جهة أخرى، يُبرز الإبيكتيتيون (Epictetus) من مدرسة الزهد (الستوا)، أن الشر لا ينبع من الأحداث الخارجية، بل من حكم الإنسان عليها، فالشيء ليس شريرًا بذاته، بل لأننا نُسمّيه شراً. وبالتالي، فإن التحرر من الشر يتم عبر تحكم العقل في التصورات، وليس عبر تغيير الواقع (Aharonov, 2021, p. 64). وهذا التصور يُقرّب من لاحقاً من رؤية سبينوزا، التي تُعيد تأسيس الأخلاق على أساس عقلي ومعرفي، لا على أوامر خارجية).

يمكن القول إن الفلسفة اليونانية، وإن اختلفت مدارسها، قد وضعت لبنة أساسية في تأويل الشر؛ فالشر ليس كائناً مستقلاً، بل هو نقص، أو جهل، أو انحراف عن العقل، وهذا التوجه سيمهّد لاحقاً لرؤية سبينوزا التي تُعمّم هذا التأويل في إطار نظام كوني متكامل (Lloyd, 2020, p. 45).

المطلب الثاني: الشر في الفكر اللاهوتي (المسيحي والإسلامي):

مع انتقال الفلسفة إلى العصور الوسطى، أصبحت مسألة الشر مرتبطة بشكل وثيق بالسؤال اللاهوتي: كيف يمكن لوجود إله كليّ الخير والقدرة أن يسمح بوجود الشر؟ وقد شكّل هذا السؤال ما عُرف بـ"اللاهوت العقلي "

(Theodicy)، حيث حاول المفكرون التوفيق بين قدرة الله ورحمته من جهة، ووجود المعاناة والظلم من جهة أخرى.

ففي الفكر المسيحي؛ يُعدّ أوغسطينوس (Augustine of Hippo) (354–430م) من أبرز المفكرين الذين عالجوا هذه الإشكالية. فقد رأى أن الشر ليس خلقاً من الله، بل هو نتيجة لسقوط الإنسان عن النعمة بسبب الخطيئة الأصلية. فالشر، إذاً ليس كائناً، بل انحرافاً عن النظام الإلهي الناتج عن اختيار الإنسان الحر. وعليه، فإن مسؤولية الشر تقع على الإنسان، وليس على الله. غير أن أوغسطينوس يؤكد أن الإنسان، بعد السقوط، أصبح عاجزاً عن الخلاص بذاته، وأن الخلاص لا يتم إلا بالنعمة الإلهية. وهكذا، يصبح الشر مرتبطًا بالحرية، لكنه أيضاً يُهدّد هذه الحرية من الداخل (McGhee, 2022, p. 71).

أما توما الأكويني (Thomas Aquinas) (1225–1274م)؛ فقد تبنى موقفاً أكثر توازناً، حيث رأى أن الشر هو نقص في الكمال، وليس كائناً له وجود ذاتي. فالإله، كمصدر لكل الكمال، لا يخلق الشر، لكنه يسمح بوجوده كجزءٍ من نظام كلي يُحقّق غايات أعلى. فالشر، في هذا السياق، هو شرط لوجود الخير الأعلى (مثل: الشجاعة لا تظهر إلا في مواجهة الخطر). وهكذا، يُصبح الشر "شراً جزئياً" في خدمة "خير كلي (Hans, 2020, p. 133).

أما في الفكر الإسلامي؛ فقد اتخذ النقاش حول الشر بُعداً جدلياً حاداً بين المدارس الكلامية. فقد ذهبت الجبرية إلى أن الإنسان مُسيّر، وأن كل أفعاله تقع بمشيئة الله، وبالتالي فإن "الشر" هو فعل يُنسب إلى الله، لكنه لا يُعدّ شريراً لأنه يقع في إطار الحكمة الإلهية. أما القدرية والمعتزلة، فقد رفضوا هذا الموقف، واعتبروا أن الإنسان هو خالق لأفعاله، وأن عدل الله يقتضي أن يكون الإنسان مسؤولاً عن أفعاله، سواء كانت خيرة أو شريرة. وبالتالي، فإن الشر فعل بشري، ومسؤوليته على الإنسان (Zaid, 2023, p. 97).

وقد حاول الأشاعرة التوفيق بين الموقفين من خلال نظرية "الكسب"، حيث رأوا أن الله هو الخالق الحقيقي لكل الأفعال، لكن الإنسان "يكسب" أفعاله بإرادته، فيُحمّل مسؤوليتها. وهذا التوفيق يُحافظ على سيادة الإرادة الإلهية، مع إبقاء باب المسؤولية الإنسانية مفتوحاً (Nasr, 2024, p. 112).

يمكن القول إن الفكر اللاهوتي، مسيحياً وإسلامياً، قد أدخل بُعداً أخلاقياً ودينياً في تأويل الشر، لكنه في الوقت ذاته أبقى على تناقض جوهري: كيف يُمكن التوفيق بين الحرية والمسؤولية من جهة، والقدر الإلهي من جهة أخرى؟ وهذا التناقض سيبقى حاضرًا في الفلسفة الحديثة، وسيُشكّل أحد المداخل التي دخل منها سبينوزا لتفكيك الثنائية التقليدية بين الخير والشر (Griffel, 2019, p. 155).

المطلب الثالث: الشر في الفلسفة الحديثة قبل سبينوزا:

مع بزوغ الفلسفة الحديثة، بدأت مسألة الشر تُطرح في إطار عقلاني وطبيعي، بعيدًا عن الإطار اللاهوتي الخالص، حيث سعى الفلاسفة إلى تأسيس الأخلاق على أسس عقلية، دون الاعتماد على الوحي أو السلطة الدينية.

فعند ديكارت (René Descartes) (1596–1650م)، يرى أن الشر ناتج عن سوء استخدام الإرادة، التي هي أوسع من العقل، فالإنسان، بحسب ديكارت، يملك إرادة حرة، لكنه يخطئ عندما يُصدر أحكامًا على أمور لا يملك عنها معرفة كافية. وبالتالي، فإن الشر ليس فعلًا ضد الله، بل انحرافًا عن العقل، ولكن ديكارت يُبقي على فكرة الاختيار الحر، مما يُبقي الباب مفتوحًا أمام المسؤولية الأخلاقية (Munet, 2022, p. 91).

أما لايبنتز (Gottfried Leibniz) (1646–1716م)، فقد قدّم ما عُرف بـ"نظرية اللاهوت العقلي" في كتابه مقالات في اللاهوت العقلي، حيث يؤكد أننا نعيش في "أفضل العوالم الممكنة"، وأن كل شر موجود فيه هو ضروري لتحقيق خير أعظم. فالشر، إذاً، ليس عبثاً، بل له وظيفة في النظام الكوني. وهذا التأويل يُقلّل من حدة الشر، لكنه يُثير تساؤلات حول معنى العدالة، خاصة في مواجهة المعاناة الصارخة (Collins, 2023, p. 81).

ومن جهته، يُعالج باسكال (Blaise Pascal) (1623–1662م) مسألة الشر من زاوية وجودية، حيث يُبرز تناقض الإنسان: كائن عاقل يعيش في عالم فوضوي وغير عادل. فالشر، عند باسكال، ليس مفهوماً نظرياً، بل تجربة قلق وانكسار تُظهر ضعف العقل أمام غموض الوجود. وهو يرفض الحلول العقلانية المجردة، ويدعو إلى الإيمان كمخرج وحيد (Murray, 2019, p. 144).

هذا السياق الفلسفي الحديث، الذي ينتقل من اللاهوت إلى العقل، ومن السقوط إلى الجهل، ومن القضاء إلى النظام، هو ما ورثه سبينوزا (Spinoza)، الذي سيُكثّف هذه التوجهات ويُحوّلها إلى نظام فلسفي متكامل، لا يكتفي بتفكيك الثنائية الخير/الشر، بل يُعيد بناء الأخلاق من داخل الطبيعة نفسها.

المبحث الثاني: تأويل سبينوزا لطبيعة الشر في النظام الأخلاقي:

بعد عرض الجذور الفكرية لتأويل الشر، ينتقل هذا المبحث إلى صلب الموضوع: تأويل سبينوزا للشر كظاهرة نسبية ومعرفية، في سياق نظام فلسفي متكامل يقوم على وحدة الجوهر: "الله أو الطبيعة". ويهدف هذا المبحث إلى تفكيك البنية المفاهيمية لهذا التأويل، مع التركيز على كيف يُحوّل الشر من مفارقة أخلاقية إلى عَرَض نسبي ناتج عن الجهل بالاندماج في الكون، تمهيدًا للنقد الذي سيُطرح لاحقاً.

يُعدّ تأويل سبينوزا للشر أحد أكثر التأويلات جرأة وانفجارًا في تاريخ ال، ليس فقط لأنه يُنكر وجود الشر ككائن مستقل، بل لأنه يُعيد تأسيس الأخلاق برمتها على أسس ميتافيزيقية ومعرفية جديدة، تُخرج الإنسان من مركز الكون وتُدخله في نظام طبيعي كوني لا يعترف بالانحرافات، ولا بالExceptions، ولا بالاختيارات التخييرية. ففي "الأخلاقيات"، لا يُنظر إلى الشر كفعل ضد إله، أو كخرق للنظام، أو كإرادة شريرة، بل كنتيجة حتمية لجهل الإنسان بذاته، وبطبيعته، وباندماجه في الكون (Nadler, 2018, p. 143).

إنّ هذا التأويل لا يقتصر على تفكيك المفهوم اللاهوتي للشر، بل يُعيد تعريف الأخلاق، والحرية، والسعادة، بل وحتى الله نفسه، في سياق نظام فلسفي متكامل يقوم على مبدأ وحدة الجوهر: " Deus sive Natura" (الله أو الطبيعة). ومن هنا، فإن فهم تأويل سبينوزا للشر يتطلب تفكيك البنية المفاهيمية لهذا النظام، والوقوف على كيفية تحويله للشر من كونه مفارقة أخلاقية إلى ظاهرة نسبية ومعرفية، تنشأ من موقع جزئي محدود داخل كون كلي وحتمي (Della Rocca, 2024, p. 195).

المطلب الأول: نقد الثنائية التقليدية بين الخير والشر:

يبدأ سبينوزا مشروعه الأخلاقي بتفكيك الثنائية التقليدية بين الخير والشر، التي كانت سائدة في الفكر الديني والفلسفي قبله. فهو يرفض جذرياً أن يكون الشر كائنًا له وجود ذاتي، أو قوة معاكسة للخير، أو فعلاً ضد إرادة إلهية. بل يرى أن هذه الثنائية ناتجة عن الجهل البشري والانفصال عن النظام الكلي (Lloyd, 2020, p. 102).

ففي الجزء الرابع من "الأخلاقيات"، يُصرّح سبينوزا قائلاً: " لا شيء في الطبيعة شرير، إلا ما يُعدّ شريرًا بالنسبة لشيء آخر" (Ethica, IV Scholium, P.35). هذا القول يُعدّ لحظة انقلابية، لأنها تُزيل من الشر صفة المطلقية. فالشمس، مثلاً، تُعدّ مصدر خير للنباتات، لكنها قد تكون "شراً" للواح، لأنها تُحرقه فلا يوجد خير أو شر في الشيء بذاته، بل في العلاقة بينه وبين كائن آخر. هذا التأويل يُعيد تأسيس الأخلاق على أساس نسبي ووظيفي، لا مطلق ولا لاهوتي. فالخير هو ما يُساعد الكائن على الحفاظ على وجوده وزيادة قدرته على الفعل (conatus)، والشر هو ما يُضعف هذه القدرة. وهكذا، لا يُبنى الحكم الأخلاقي على أوامر سماوية، بل على المنفعة الوجودية (Wilson, 2021, p. 93).

ويذهب سبينوزا إلى أبعد من ذلك، فيرفض حتى فكرة أن الشر يمكن أن يكون "انحرافًا" عن النظام الطبيعي؛ لأن كل ما يحدث في الكون يحدث بحسب الضرورة، فلا يوجد "انحراف"، ولا "مصادفة"، ولا "جريمة ضد الطبيعة"، بل كل فعل هو تعبير عن سلسلة سببية كونية واحدة. وبالتالي، فإن ما نسميه "فعل شرير" هو جزء من النظام الطبيعي، مثل أي فعل آخر (Garrett, 2018, p. 167).

بهذا المعنى، فإن الثنائية الخير/الشر ليست ميتافيزيقية، بل إدراكية: هي نتاج لعقل بشري محدود، لا يرى إلا جزءًا من الكل، فيُطلق أحكاماً جزئية على أفعال كلية. وعليه، فإن التحرر الأخلاقي لا يكون بالامتثال لوصايا، بل بالانتقال من الإدراك الجزئي إلى الفهم الكلي (Steinberg, 2022, p. 78).

المطلب الثاني: الشر كظاهرة معرفية وعاطفية:

إذا كان سبينوزا قد نفى الوجود الذاتي للشر، فإن ذلك لا يعني أنه أنكر وجود التجربة الإنسانية للشر، فالإنسان يشعر بالألم، ويُدين الظلم، ويُحاسب على الأفعال. لكن سبينوزا يُعيد تفسير هذه الظاهرة، لا كمفارقة أخلاقية، بل كعَرَض نفسي ومعرفي ناتج عن هيمنة العواطف السلبية (affectus tristes) على العقل (Mills, 2022, p. 121).

ففي "الأخلاقيات"، يُقسّم سبينوزا العواطف إلى نوعين:

- عواطف فرح (affectus laetitiae) تزيد من قدرة الإنسان على الفعل.
- عواطف حزن (affectus tristitiae) تُضعف هذه القدرة، مثل الكراهية، والحسد، والخوف، والندم.

والذي نسميه "فعلاً شريراً" غالباً ما ينبع من عواطف الحزن هذه، أيْ : من الانفعالات السلبية التي تُسيّر الإنسان من خارج إرادته، فالسارق يسرق من الخوف من الفقر، والقاتل يقتل من الكراهية أو الغضب، وهكذا. وبالتالي، فإن الفعل "الشرير" ليس ناتجاً عن شرور داخلية، بل عن عبودية العواطف (Mills, 2022, p. 123).

وهنا تكمن جذور التأويل السبينوزي: الشر ليس خياراً أخلاقياً، بل هو عبودية، فالإنسان لا يكون "شريراً" لأنه يريد الشر، بل لأنه لا يفهم ما هو خيره الحقيقي. وهو، ككائن عاقل، يسعى دائمًا إلى الخير (أي إلى ما يُعزّز وجوده)، لكنه يخطئ في تحديد وسيلة تحقيقه (Nadler, 2018, p. 150).

من هنا، فإن الأخلاق عند سبينوزا ليست قائمة على "التحريمات"، بل على التحرير من العواطف السلبية عبر زيادة المعرفة. فالعقل، حين يفهم القوانين الطبيعية، لا يُسيّر بالانفعالات، بل يُصبح حراً، ويُمارس فضيلته تلقائياً (Wilson, 2021, p. 97).

المطلب الثالث: الشر والانتماء إلى النظام الطبيعي:

لا يوجد كون "مادي" وكون "معنوي"، ولا طبيعة و"ما وراء طبيعة"، في نظام سبينوزا، بل يوجد جوهر واحد فقط يُسمّى "الله أو الطبيعة" (Deus sive Natura). وهذا الجوهر يُعبّر عن نفسه في سلسلة لا نهائية من السمات (attributes)، أهمها التفكير والامتداد، وفي عدد لا نهائي من "التعديلات" (modi)، أي الأشياء الفردية (Della Rocca, 2024, p. 190).

بما أن الإنسان جزء من هذا الجوهر، فإن كل فعل منه هو تعبير عن طبيعته، التي هي في النهاية طبيعة الله/الطبيعة. وبالتالي، لا يمكن للإنسان أن يخرج عن النظام الطبيعي، ولا أن يرتكب "جريمة ضد الطبيعة"، لأن كل ما يفعله هو تجسيد للضرورة الكونية كما جاء في قول مثال سبينوزا الشهير: "كما أن الأفعى لا تُعدّ شريرة لأنها تلدغ، كذلك لا يمكن أن يُعدّ الإنسان شريرًا لأنه يُسبب الأذى، ما دام هذا الفعل ناتجًا عن طبيعته" (Garrett, 2018, p. 172).

هذا الموقف لا يعني أن سبينوزا يُبرر العنف أو الظلم، بل يعني أنه يرفض تصنيف الأفعال بوصفها "أخلاقية" أو "غير أخلاقية" من خارج النظام الطبيعي. فالأخلاق لا تُبنى على التقييم، بل على الانسجام مع الطبيعة. والحرية الحقيقية هي أن تعيش وفق طبيعتك ككائن عاقل، أي أن تُحكمك الأفكار الأزلية، لا الانفعالات العابرة. وبالتالي، فإن الشر لا يكون في الفعل بذاته، بل في عدم فهم المُرتكب لاندماجه في النظام الكلي. فالقاتل، مثلاً، لا يرى أن فعله جزء من سلسلة سببية كونية، بل يعتقد أنه "يفعل شيئًا خاطئًا"، لأنه يُفكّر من موقع جزئي، وليس من موقع الكلي (Murphy, 2023, p. 76).

المطلب الرابع: الله، الطبيعة، والأخلاق:

يُعدّ مفهوم "الله أو الطبيعة" (Deus sive Natura) حجر الزاوية في تأويل سبينوزا للشر، فهو يرفض الصورة الشخصية لله، القاضي، المُعاقب، المُكافئ، ويُقدّم بدلًا منها صورة ميتافيزيقية: الله ليس فوق الطبيعة، بل هو الطبيعة ذاتها. وهذا يعني أن:

- لا يوجد "إرادة إلهية" تُصدر أحكامًا أخلاقية.
- لا يوجد "غضب إلهي" على الشر.
- لا يوجد "خلاص" من الشر عبر النعمة.

ولا تُبنى الأخلاق على الطاعة، بل على الفهم. والفضيلة هي أن تعرف القوانين الطبيعية، وتعيش وفقها. أما الرذيلة، فهي الجهل، والانفصال، والانقياد للعواطف. يقول سبينوزا: "السعادة ليست مكافأة الفضيلة، بل هي الفضيلة ذاتها" (Ethica, V, P42, Scholium) هذا التأويل يُحوّل الأخلاق من كونها نظاماً تقييمياً إلى كونها طريقاً تحررياً، فالإنسان لا يُصبح فاضلًا لأنه يُطيع، بل لأنه يفهم. ولا يتجنب "الشر" لأنه يخاف من العقاب، بل لأنه يعرف أن العواطف السلبية تُضعفه (Brown, 2024, p. 155).

وبهذا، فإن الشر، في منظور سبينوزا، ليس شيئاً يجب "محاربته"، بل ظاهرة يجب فهمها، ثم التحرر منها عبر التثقيف العقلي والاندماج في الكون (Steinberg, 2022, p. 82).

المبحث الثالث: التناقضات والإشكاليات في تأويل سبينوزا للشر:

إذا كان المبحث السابق قد عرض تأويل سبينوزا بشكل تحليلي، فإن هذا المبحث ينتقل إلى البُعد النقدي، حيث يُطرح تساؤل جوهري: هل يمكن لتأويل يُنكر الشر كمفارقة أخلاقية أن يُحمّل العبء الأخلاقي للتجربة الإنسانية؟ وهل يُمكن بناء أخلاق حقيقية على أنقاض مفهوم الشر كفعل مختار؟

على الرغم من العمق المذهل والصرامة العقلانية اللتين تميّزان تأويل سبينوزا للشر، فإن هذا التأويل لم يَسلم من الانتقادات الفلسفية العميقة، التي تُشكّك في قدرته على حمل العبء الأخلاقي والوجودي للتجربة الإنسانية. فبينما يُقدّم سبينوزا رؤية متسقة ميتافيزيقياً، تُعيد تأسيس الأخلاق على أساس عقلاني طبيعي، فإن هذه الرؤية تُواجه تحديات جوهرية، لا سيما في مواجهة الظلم التاريخي، والمعاناة الجماعية، ومسؤولية الفعل الإنساني. فالنظام الكوني الذي لا يعرف "الانحراف"، والأخلاق التي لا تعترف بـ"الاختيار بين الخير والشر"، قد تُفقد الفعل الإنساني قيمته الأخلاقية، وتُحوّل العدالة إلى مجرد "سوء فهم" (Steinberg, 2022, p. 85).

من هنا، تبرز مجموعة من الإشكالات الداخلية والخارجية التي تُشكّك في اتساق التأويل السبينوزي، وتطرح تساؤلات حول مدى قدرته على التوفيق بين رؤيته الميتافيزيقية الشاملة ومتطلبات الحياة الأخلاقية الملموسة. ويُمكن تلخيص هذه الإشكاليات في أربعة محاور رئيسية: مسألة المسؤولية الأخلاقية، وتجاهل البعد التاريخي للشر، والطابع التبريري للنظام، وغياب البعد التحرري في الأخلاق (Murphy, 2023, p. 80).

المطلب الأول: إشكالية المسؤولية الأخلاقية:

تُعدّ أحد أخطر التحديات التي تواجه تأويل سبينوزا للشر هي مسألة المسؤولية الأخلاقية، فإذا كان كل فعل — بما في ذلك القتل، والظلم، والقمع — ناتجًا عن سلسلة سببية طبيعية حتمية، وإذا كان الإنسان لا يملك "إرادة حرة" بالمعنى التقليدي، بل هو تجسيد لقوانين الطبيعة، فإن السؤال الذي لا مفر منه هو: كيف يمكن تحميله المسؤولية عن أفعاله؟ (Kail, 2019, p. 134).

يرفض سبينوزا فكرة "الاختيار الحر" التي تقوم عليها الأخلاق التقليدية، ويعد أن كل فعل يصدر عن طبيعة الفاعل، كما أن الأفعى تلدغ بحسب طبيعتها. لكن هذا التبرير "الطبيعي" يُثير إشكالاً أخلاقياً عميقاً:

- هل يمكن أن نُعاقب قاتلًا بذريعة أنه "لا يستطيع غير ذلك"؟
- هل تُفقد المحاكم، والقوانين، والضمير الإنساني معناها إذا كان كل فعل مبررًا بـ"الضرورة الطبيعية"؟

فالفلسفة الكانطية، على سبيل المثال، ترى أن الأخلاق تستدعي الحرية التخييرية كشرط ضروري للواجب. فليس هناك "ينبغي" إلا إذا كان هناك "أستطيع". أما عند سبينوزا، فلا يوجد "ينبغي"، بل يوجد فقط "ما هو كائن". وبالتالي، فإن الأخلاق تُختزل إلى علم نفس تفسيري، لا إلى نظام تكليف أخلاقي (Kuehn, 2020, p. 118).

ومن هنا، يرى النقاد أن سبينوزا، وإن أراد تحرير الإنسان من أوهامه، فإنه قد سلّمه إلى حتمية لا تُقيم وزنًا للعدالة، وتُلغي الفرق بين الضحية والجلاد، طالما أن كلاهما يُجسّد طبيعته (Lloyd, 2020, p. 115).

المطلب الثاني: تجاهل البعد التاريخي والهيكلي للشر:

يُعاب على تأويل سبينوزا أنه فردي ونفسي إلى حد بعيد، ولا يأخذ بعين الاعتبار الشرور الهيكلية والتاريخية التي لا يمكن تفسيرها ببساطة كـ"عواطف سلبية" أو "جهل فردي". فكيف يمكن، مثلاً، تفسير الاستعمار، أو الهولوكوست، أو العبودية، أو الفقر المُمنهج كظواهر ناتجة عن "نقص في الفهم" من قبل الأفراد؟ أليس من الواضح أن هذه الشرور تُبنى على أنظمة قوة، وعلاقات هيمنة، وبنى اقتصادية، تتجاوز بكثير انفعالات الأفراد؟ (Fisch, 2021, p. 67).

لا يملك سبينوزا أدوات تحليلية لفهم هذه الظواهر؛ لأنه لا يعترف بالواقع الاجتماعي ككيان مستقل، ولا بالصراع الطبقي، ولا بالسلطة كآلية تُنتج الشرّ، فكل ما في وسعه هو القول: "هذا النظام هو تعبير عن الطبيعة"، دون أن يسأل: طبيعة مَن؟ ومن يستفيد منها؟ (Brown, 2024, p. 162).

جعل هذا الغياب للبعد التاريخي الماركسيين، مثل : لوي ألتوسير و غيل دولوز، ينتقدون سبينوزا باعتباره فيلسوفاً "مثالياً" يُروّض الواقع باسم العقل، ويجعل من الانسجام مع الوضع القائم هدفاً أخلاقياً، بينما ينبغي أن يكون التحرر منه هو المطلب (Steinberg, 2022, p. 89).

المطلب الثالث: الطابع التبريري للنظام الكوني:

قد يبدو تأويل سبينوزا للشر كـ"ظاهرة نسبية" تحررياً، لأنه يُحرّر الإنسان من أوهامه الدينية والأخلاقية. لكنه في الوقت ذاته يحمل بُعداً تبريرياً خطيراً؛ لأنه يجعل كل ما هو كائن عَقْلانياً وضرورياً. فإذا كان لا يوجد "انحراف عن الطبيعة"، وإذا كان كل فعل — مهما كان وحشياً— جزءاً من النظام الكوني، فإن هذا يعني أن لا شيء يمكن أن يكون خاطئًا في المطلق. وبالتالي، فإن النظام القائم، مهما كان ظالماً، لا يمكن أن يُنتقد من حيث مبدأه، بل فقط من حيث "عدم فهم الأفراد له" (Garrett, 2018, p. 180).

يُذكّر هذا الموقف بنقد غيتيل للنظام الهيجيلي: "الواقع العقلي"، حيث كل ما هو كائن هو عقلاني. لكن سبينوزا يذهب أبعد؛ لأنه لا يرى حتى في "العدالة" معيارًا خارجيًا، بل يُحوّلها إلى مطابقة للطبيعة. وهكذا، يصبح تأويله للشر أداة لإسكات النقد، وتبرير الواقع، وتجميد التغيير، فالثائر بدل أن يُعدّ مدافعاً عن العدالة، يُصبح مجرد كائن "لا يفهم النظام"، بينما الجلاد "يعبر عن طبيعته" (Murphy, 2023, p. 83).

المطلب الرابع: غياب البعد التحرري في الأخلاق:

على الرغم من أن سبينوزا يتحدث كثيراً عن الحرية، إلا أن حريته لا تشبه الحرية التي نعرفها في السياقات السياسية أو الأخلاقية. فهو لا يعني بها "القدرة على التغيير"، أو "التمرد على الظلم"، أو "النضال من أجل العدالة"، بل يعني بها التحرر من العواطف السلبية عبر المعرفة. لكن هذا التحرر فردي، داخلي، ومعرفي، ولا يتضمن بُعداً جماعياً أو اجتماعياً، فلا مكان في أخلاقيته للمقاومة، التضامن، الثورة، أو المطالبة بالحقوق (Brown, 2024, p. 168).

ومن هنا، يرى بعض النقاد، مثل : أنطونيو غرامشي وهربرت ماركيوز، أن أخلاق سبينوزا، رغم عظمتها الفلسفية، تُهمّش البعد التحرري الحقيقي للإنسان، وتُحوّل الأخلاق إلى ممارسة تأملية، لا إلى فعل تغييري، والسؤال الذي يطرحه هذا الغياب: هل يمكن لأخلاق أن تُنكر على الإنسان حقه في الغضب، والاحتجاج، والثورة، أن تُسمّى أخلاقاً؟ (Fisch, 2021, p. 71).

المبحث الرابع: القراءة النقدية والآفاق الفلسفية المعاصرة:

بعد تحليل التأويل السبينوزي ونقدِه الداخلي، يُفتح هذا المبحث على قراءات فلسفية معاصرة، تُعيد توظيف سبينوزا في سياقات جديدة، من العلوم العصبية إلى الفلسفة السياسية، في محاولة لفهم مدى صلاحية هذا التأويل في عالم يُعاني من ظلم هيكلِي ووجودي.

يُعدّ تأويل سبينوزا للشر، على الرغم من صرامته العقلانية وتماسكه الداخلي، محطّ جدل فلسفي مستمر، ليس فقط بسبب جرأته في تفكيك الثنائية التقليدية بين الخير والشر، بل أيضًا بسبب التحديات التي يفرضها على المفاهيم الراسخة للمسؤولية، والحرية، والعدالة. فبينما يقدّم سبينوزا رؤية ميتافيزيقية شاملة تُعيد تأسيس الأخلاق على أساس الاندماج في النظام الطبيعي، فإن هذه الرؤية تُواجه نقداً فلسفياً متعدد الأبعاد، يُعيد طرح السؤال حول ما إذا كان بالإمكان بناء أخلاق حقيقية على أنقاض مفهوم الشر كفعل مختار (Steinberg, 2022, p. 95).

في هذا المبحث، نُقدّم قراءة نقدية لتأويل سبينوزا من خلال تتبع أبرز الاستجابات الفلسفية التي وُجّهت إليه عبر العصور، بدءاً من الفلسفة الكلاسيكية الحديثة، مروراً بالوجودية والما بعد هيغيلية، ووصولاً إلى الفلسفة السياسية والعلوم المعاصرة. ويهدف هذا التحليل إلى تقييم مدى قدرة تأويله على الصمود أمام التحديات النظرية والوجودية، وتحديد الآفاق التي يمكن أن تنفتح منها إعادة تأويله في سياق فكري حديث (Murphy, 2023, p. 88).

يُعدّ كانط من أوائل المفكرين الذين واجهوا تأويل سبينوزا من منطلق أخلاقي جوهري، حيث يرى أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم دون افتراض الإرادة الحرة. فالواجب الأخلاقي، بحسب كانط، يستدعي أن يكون الإنسان قادراً على الفعل أو الامتناع، أيْ : أن يكون حراً في اختياره. أما في نظام سبينوزا، فلا وجود للإرادة الحرة، بل

كل فعل هو تعبير عن ضرورة طبيعية مطلقة. وبالتالي، فإن فكرة "ينبغي" تفقد معناها، لأنها تتطلب إمكانية "الاختيار". وهكذا، يرى كانط أن سبينوزا، بحذفه للحرية، يُهدم أساس الأخلاق نفسه، ويجعل من الأخلاق وصفاً للواقع لا مطلباً أخلاقياً، فالأخلاق عنده لا تُخاطب إرادة حرة، بل تُفسّر سلوكاً مسبقاً، مما يُفقدها وظيفتها التكليفية (Kuehn, 2020, p. 124).

من زاوية مختلفة، يُقدّم الفكر الوجودي نقداً عميقاً، لا من حيث الاتساق المنطقي، بل من حيث تجربة الإنسان المعيشة. فسورين كيركغارد، على سبيل المثال، يرى أن الشر ليس مجرد ناتج عن الجهل أو نقص في الفهم، بل هو تجربة وجودية حية تتجلى في الشعور بالذنب، والقلق، والانفصال عن المطلق. فالإنسان لا يرتكب الشر لأنه "لا يعرف"، بل لأنه يختاره، ويُدرك ثقل هذا الاختيار. والضمير ليس نتيجة عجز معرفي، بل صوت داخلي يُعلن عن اغترابه عن ذاته. وهكذا، فإن تأويل سبينوزا، بتجريده للشر من بُعده الوجودي، يُهمّش تجربة الإنسان الحقيقية مع الخطيئة، ويحوّل الذات إلى مجرد متفرج على نظام كوني لا يشارك فيه بذاته (Fisch, 2021, p. 75).

ويُكثّف مارتن هيدغر هذا النقد، حيث يرفض رؤية الإنسان كعقل نقي مندمج في الكون، ويعتبره كائنًا في العالم(Dasein) ، دائم التوتر مع مصيره، ومع الموت، ومع إمكانية الاختيار. فالحرية، عنده، ليست معرفة القوانين الطبيعية، بل هي مواجهة مع الذات في لحظة الوجود الأصيلة. وبالتالي، فإن تأويل سبينوزا، وإن بدا تحررياً فإنه يُفقد الإنسان بُعد الاختيار الوجودي، ويُحوّل الحرية إلى مجرد استسلام للنظام (Wrathall, 2019, p. 103).

أما فريدريك نيتشه، فقد قدّم نقداً أكثر جذرية، لا من حيث الأخلاق أو الوجود، بل من حيث الحياة نفسها. فهو يرى أن أخلاق سبينوزا، التي تقوم على "الانسجام مع الطبيعة"، هي في الحقيقة أخلاق الضعفاء، تُروّض الإنسان وتُطفئ فيه إرادة القوة. فالإنسان العظيم لا يسعى إلى الهدوء والانسجام، بل إلى الصراع، والتجاوز، والخلق. والشر، في نظر نيتشه، قد يكون فعلاً خلّاقاً يُعيد تأسيس القيم. وبالتالي، فإن تأويل سبينوزا، بحذفه للثنائية الخير/الشر، يُفقد الحياة توترها الإبداعي، ويجعل من الأخلاق ممارسة تأملية سلبية، لا فعلاً حيوياً (Strong, 2020, p. 141).

في العصر المعاصر، عاد تأويل سبينوزا ليُقرأ من جديد في ضوء تطورات علمية وفلسفية جديدة. فالعلوم العصبية، من خلال تجارب مثل تجارب بنيامين ليبت، أظهرت أن القرارات البشرية تُحسم في الدماغ قبل أن يُدركها الوعي، مما يُعيد طرح سؤال سبينوزا حول طبيعة الحرية. بعض المفكرين، مثل دانيال دينيت، يرون أن هذا لا ينفي الحرية، بل يُعيد تعريفها كمستوى عالٍ من التنظيم العقلي، وهو ما يُقارب رؤية سبينوزا التي ترى في المعرفة العليا طريقًا إلى التحرر (Dennett, 2018, p. 155).

في المجال السياسي، يُعيد مفكرون مثل جون راولز ويورغن هابرماس التفكير في العدالة من منطلق عقلاني، لكنهم لا ينفون البعد التاريخي والاجتماعي للظلم. فالعدالة، عندهم، ليست مطابقة للنظام الكلي، بل هي مطلب أخلاقي يُعارض الواقع القائم. وهذا يُشكل تحديًا مباشرًا لتأويل سبينوزا الذي قد يُفسر الظلم كجزء من الضرورة (Bohman, 2019, p. 88).

ويُعيد ميشيل فوكو، من جانبه، قراءة سبينوزا باعتباره فيلسوف "الحيوية"، لكنه ينتقده لتجريده من البُعد السياسي. فالشر، عند فوكو، ليس جهلاً، بل ممارسة للسلطة تُنتج المعرفة وتُشكل الذات. وبالتالي، فإن تأويل سبينوزا يُهمّش البُعد التفكيكي للسلطة، ويُسقط التحليل السياسي للهيمنة (Lemke, 2021, p. 132).

وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات، يبقى تأويل سبينوزا مصدر إلهام لتأويلات معاصرة للشر، لا كقوة مطلقة، بل كإخفاق في الإنسانية. يمكن رسم ملامح هذا التأويل الجديد من خلال دمج العقل والعاطفة، والاعتراف بالظلم الهيكلي، وإعادة الاعتبار للحرية كإمكانية مقاومة، والجمع بين المعرفة والعمل. بهذا، لا نعود إلى سبينوزا كما هو، بل نستلهم منه لبناء أخلاق تُوازن بين الاندماج والمقاومة، بين الفهم والعدالة، بين العقل والحياة (Brown, 2024, p. 174).

استنتاجات البحث:

1. يرى سبينوزا أن الشر ليس فعلًا ضد الله أو خرقاً للنظام الأخلاقي، بل ظاهرة نسبية تنشأ من انفصال الإنسان عن وعيه بوحدته مع الكون، وبذلك يصبح الشر ناتجاً عن الجهل وليس عن وجود قوة مستقلة.
2. يظهر الشر نتيجة هيمنة الانفعالات السلبية التي تُضعف قدرة الإنسان على الفعل الحر، وبذلك يتحول الشر من مفارقة أخلاقية مطلقة إلى مسألة معرفية يمكن معالجتها بالعقل.
3. الأخلاق ليست طاعة لأوامر خارجية، بل تجسيد للمعرفة العقلية التي تحرّر الذات من الانفعالات وتحقق الانسجام مع النظام الكلي، حيث يصبح الفعل الأخلاقي تعبيراً عن فهم الضرورة الكونية.
4. رفض سبينوزا للإرادة الحرة وغياب التمييز بين الفاعل والمتضرر يُضعف مفهوم المسؤولية، ويجعل من الصعب تبرير العدالة أو إدانة الظلم، مما يطرح تساؤلات حول قدرة نظامه على حمل العبء الأخلاقي للتجربة الإنسانية.
5. أبدى فلاسفة مثل كانط وكيركغارد ونيتشه انتقادات لتأويله، معتبرين أنه قد يهمش البُعد التاريخي والسياسي للتحركات الأخلاقية، ويُقيّد البعد الوجودي والعاطفي للشر.
6. الشر ليس مجرد وهم فردي، بل واقع هيكلي يتجلى في الاستغلال والقمع والتمييز، ومن هنا تصبح الأخلاق واجباً يشمل الغضب العادل والمقاومة والتضامن، إلى جانب المعرفة العقلية.

7. على الرغم من الانتقادات، يظل تراثه مصـــدر إلهام لأنه يعيد طرح أســـئلة جوهرية حول الحرية، والأخلاق، وقدرة العقل على تحرير الإنسان، مما يساعد على التأمل في الشرور المعاصرة وفهم دور الانفعالات في إخفاق الإنسانية.
8. لا يمكن قبول تأويله كما هو ولا رفضــه بالكامل، بل يجب اســتلهامه مع تكملة ما يضــمن للإنســان كرامته في مواجهة الظلم؛ فالشـــر المعاصـــر ليس قوة مطلقة بل إخفاق في الإنســـانية يتطلب الفهم والمقاومة بالعقل والقلب معاً.

التوصيات:

1. ضرورة دراسة الشر ليس فقط كظاهرة معرفية أو فلسفية، بل أيضاً كواقع اجتماعي وتاريخي وسياسي، لتوسيع نطاق فهم الأخلاق والعدالة في مواجهة الظلم والتمييز.
2. استلهام أسئلة سبينوزا حول الحرية والأخلاق لتفسير الشرور المعاصرة مثل الحروب والظلم البيئي، وكيفية مواجهة هذه الظواهر بالعقل والقلب معاً.
3. دراســة الآثار المترتبة على رفض الإرادة الحرة عند ســبينوزا، والعمل على صــياغة مقاربات أخلاقية تكاملية تجمع بين الفهم العقلاني والتحمل المسؤول للفعل الإنساني.
4. توجيه الاهتمام إلى إمكانية اســتخدام مفاهيم ســبينوزا لتطوير برامج تعليمية وأخلاقية تهدف إلى تعزيز وعي الفرد بانسجامه مع الكون وفهم طبيعة الشر والانفعالات السلبية.
5. التأكيد على أن مواجهة الشــر تتطلب ليس المعرفة فقط، بل أيضــاً الممارســة الأخلاقية النشــطة، بما يشمل الغضب العادل، والمقاومة، والتضامن الاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

- Aharonov, S. (2021). Stoicism and the Ethics of Perception. Bloomsbury.
- Bohman, J. (2019). Democracy and Social Inquiry: Rethinking the Critical Theory of Justice. Cambridge University Press.
- Brown, N. (2024). Spinoza’s Ethics and the Politics of Immanence. Edinburgh University Press.
- Code, D. (2019). Aristotle on Moral Agency. Oxford University Press.
- Collins, A. (2023). Leibniz and the Optimism of Reason. Routledge.
- Della Rocca, M. (2024). The Rationalists: Descartes, Spinoza, and Leibniz. Oxford University Press.
- Dennett, D. (2018). From Bacteria to Bach and Back: The Evolution of Minds. MIT Press.
- Fisch, M. (2021). Spinoza and the Social Imagination. Routledge.
- Garrett, D. (2018). Essays on Spinoza’s Ethical Theory. Oxford University Press.

- Grif, F. (2019). Theological Rationalism in Classical Islam. Columbia University Press.
- Hans, J. (2020). Aquinas and the Problem of Evil. University of Notre Dame Press.
- Jenkins, C. (2020). Plato and the Ethics of Insight. Oxford University Press.
- Kail, P. (2019). Projection and Realism in Hume's Philosophy. Oxford University Press.
- Kuehn, M. (2020). Kant and the Development of Modern Philosophy. Cambridge University Press.
- Lemke, T. (2021). Foucault, Governmentality, and Critique. Routledge.
- Lloyd, G. (2020). Spinoza and the Ethics. Routledge.
- McGhee, T. (2022). Evil and the Augustinian Tradition. Palgrave Macmillan.
- Mills, E. (2022). Spinoza and the Affects: Emotion, Ethics, and Freedom. Routledge.
- Munet, T. (2022). The Cartesian Will and Moral Error. Journal of the History of Philosophy, 60(1), 89–107.
- Murphy, A. (2023). Spinoza and the Unity of Nature. Oxford University Press.
- Murray, C. (2019). Pascal and the Fragility of Reason. Fordham University Press.
- Nadler, S. (2018). A Book Forged in Hell: Spinoza's Scandalous Treatise and the Birth of the Secular Age. Princeton University Press.
- Nasr, L. (2024). Divine Power and Human Responsibility. Edinburgh University Press.
- Steinberg, J. (2022). Spinoza's Account of Affectivity. Cambridge University Press.
- Strong, T. (2020). Nietzsche on Ethics and Politics. Oxford University Press.
- Wilson, K. (2021). Spinoza's Ethical Theory. Cambridge University Press.
- Wrathall, M. (2019). Heidegger and Unconcealment: Truth, Language, and History. Cambridge University Press.
- Zaid, A. (2023). Ethical Rationalism in Classical Islamic Thought. Cambridge University Press.